مجلة الشهاب • المجلد: 11، العدد: 2 (2025م) • ص ص 27 – 44
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/391

التفاعُلُ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
ـ دِرَاسَةٌ بَلَاغِيَّةٌ لُغَوِيَّةٌ ـ

The Interaction between Meaning and Structure in the Holy Qur'an:

- A Rhetorical. linguistic Study -

زكرياء تونانيّ *
جامعة الجوف (المملكة العربية السعودية)
zakaria.tounani@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025-01-23	تاريخ القبول: 2025-06-20	تاريخ النشر: 2025-07-15

****

ملخص:

يَتَنَاوَلُ هَذَا الْبَحْثُ التَّفَاعُلَ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، حَيْثُ يُعَدُّ الْقُرْآنُ نَمُوذَجًا فَرِيدًا فِي تَفَاعُلِ اللُّغَةِ مَعَ الْفِكْرِ. كَمَا يَتَنَاوَلُ الْبَحْثُ كَيْفَ يُؤَثِّرُ الْبِنَاءُ اللُّغَوِيُّ فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى الْقُرْآنِيّ وَتَعْمِيقِ فَهْمِ الْمُتَلَقِّي؛ وَيَسْتَهْدِفُ الْبَحْثُ اسْتِكْشَافَ الْعَلَاقَةِ الْعَمِيقَةِ بَيْنَ اخْتِيَارِ الْكَلِمَاتِ وَالتَّرْكِيبِ اللُّغَوِيّ فِي النَّصّ الْقُرْآنِيّ وَكَيْفِيَّةِ تَأْثِيرِهِمَا فِي تَشْكِيلِ الْمَعْنَى؛ وَيَشْمَلُ الْبَحْثُ تَحْلِيلًا لِلْمَفَاهِيمِ الْبَلَاغِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالتَّرْكِيبِ اللُّغَوِيّ وَدَوْرِهِ فِي تَفْسِيرِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ، مَعَ التَّرْكِيزِ عَلَى أَمْثِلَةٍ تَطْبِيقِيَّةٍ وَالتَّأْثِيرَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي تُسْهِمُ فِي تَعْزِيزِ التَّفْسِيرِ الْقُرْآنِيّ السَّلِيمِ.

الكلمات المفتاحية: التفاعل؛ المبنى؛ المعنى؛ القرآن؛ بلاغة.

Abstract:

In actual fact, this research deals with the interaction between meaning and structure in the Holy Qur'an, as the Qur'an is considered as a unique model for the interaction of language with thought. Besides, this study handles as well the way through which linguistic structure influences the guidance of Qur'anic meaning and deepening of the recipient's understanding. In the same aspect, this research aspires to explore the thoughtful relationship between the selection of words and linguistic structure in the Qur'anic text together with the approach these elements shape meaning. Additionally, the research includes an analysis of the rhetorical concepts related to linguistic structure and the role thereof in interpreting Qur'anic texts, along with focusing on practical examples and the rhetorical influences that contribute to enhancing appropriate Qur'anic interpretation.

Keywords: interaction; structure; meaning; Quran; rhetoric.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، بِبَلَاغَتِهِ الْفَائِقَةِ، يُعَدُّ النَّمُوذَجَ الْأَمْثَلَ فِي تَفَاعُلِ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى، حَيْثُ تَلْتَقِي فِيهِ اللُّغَةُ مَعَ الْفِكْرِ، وَالتَّرَاكِيبُ اللُّغَوِيَّةُ مَعَ الرَّسَائِلِ الْإِلَهِيَّةِ. فَكُلُّ كَلِمَةٍ وَكُلُّ تَرْكِيبٍ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ لَهُ دِلَالَةٌ بَلَاغِيَّةٌ عَمِيقَةٌ، تَتَجَاوَزُ مَا يَظُنُّهُ كَثِيرُونَ مِنْ مَعَانٍ مُبَاشِرَةٍ. وَمِنْ هُنَا تَنْبُعُ أَهَمِّيَّةُ دِرَاسَةِ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَالْفَهْمُ الْعَمِيقُ لِهَذَا التَّفَاعُلِ يُسْهِمُ فِي فَتْحِ آفَاقٍ جَدِيدَةٍ لِفَهْمِ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَيُسَاعِدُ عَلَى تَحْقِيقِ التَّفْسِيرِ السَّلِيمِ لِلنُّصُوصِ.

أَهْدَافُ الْبَحْثِ:

يَهْدِفُ هَذَا الْبَحْثُ إِلَى اكْتِشَافِ الْعَلَاقَةِ الْوَثِيقَةِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَكَيْفَ أَنَّ اخْتِيَارَ الْكَلِمَاتِ وَتَرْكِيبَ الْجُمَلِ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ لَيْسَ مُجَرَّدَ عَمَلِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ أَدَاةٌ بَلَاغِيَّةٌ ذَاتُ تَأْثِيرٍ بَالِغٍ فِي فَهْمِ الْمَعْنَى.

كَمَا يَسْعَى الْبَحْثُ إِلَى تَوْضِيحِ كَيْفِيَّةِ تَأْثِيرِ الْبِنَاءِ اللُّغَوِيِّ فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى الْقُرْآنِيِّ، وَكَيْفَ أَنَّ تَفَاعُلَ التَّرْكِيبِ اللُّغَوِيِّ مَعَ الْمَعْنَى يُسْهِمُ فِي إِثْرَاءِ التَّفْسِيرِ الْقُرْآنِيِّ، وَتَعْمِيقِ فَهْمِ الْمُتَلَقِّي لِنُصُوصِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

إِشْكَالِيَّةُ الْبَحْثِ:

تَكْمُنُ إِشْكَالِيَّةُ الْبَحْثِ فِي فَهْمِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ وَالتَّرْكِيبِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ هَلْ يَتَحَدَّدُ الْمَعْنَى بِنَاءً عَلَى الْكَلِمَاتِ الْفَرْدِيَّةِ فَقَطْ؟ أَمْ أَنَّ التَّرْكِيبَ اللُّغَوِيَّ لَهُ دَوْرٌ أَسَاسٌ فِي تَشْكِيلِ الْمَعْنَى الْكُلِّيِّ لِلنَّصِّ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ الْمَعْنَى إِذَا عُدِّلَ تَرْتِيبُ الْكَلِمَاتِ أَوْ اسْتِخْدَامُ أُسْلُوبٍ لُغَوِيٍّ مُعَيَّنٍ؟

هَذِهِ الْأَسْئِلَةُ تُمَثِّلُ الْمَحْوَرَ الرَّئِيسَ الذِي سَيَتَنَاوَلُهُ الْبَحْثُ؛ حَيْثُ سَيَتِمُّ تَحْلِيلُ كَيْفِيَّةِ تَأْثِيرِ الْبِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ، وَكَيْفَ يَعْكِسُ هَذَا التَّفَاعُلُ الْبَلَاغَةَ الْقُرْآنِيَّةَ.

أَهَمِيَّةُ الْبَحْثِ:

تَنْبُعُ أَهَمِيَّةُ الْبَحْثِ مِنْ ضَرُورَةِ فَهْمِ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بِاعْتِبَارِهِ مِفْتَاحًا لِفَهْمِ دِلَالَاتِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ وَتَفْسِيرِهَا تَفْسِيرًا دَقِيقًا. فَالْكَلِمَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ حُرُوفٍ مُفْرَدَةٍ، بَلْ هِيَ أَدَوَاتٌ بَلَاغِيَّةٌ تَحْمِلُ فِي تَرْكِيبِهَا رَسَائِلَ إِلَهِيَّةً دَقِيقَةً، تَتَطَلَّبُ دِرَاسَةً مُعَمَّقَةً لِكَيْفِيَّةِ تَأْثِيرِ الْبِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ عَلَى فَهْمِ الْمَعَانِي.

كَمَا أَنَّ فَهْمَ هَذَا التَّفَاعُلِ يُعَدُّ مِنْ أَبْرَزِ جَوَانِبِ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، الَّتِي تُسْهِمُ فِي إِثْرَاءِ الدِّرَاسَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَفَتْحِ أُفُقٍ أَوْسَعَ لِلتَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ.

مَنْهَجُ الْبَحْثِ:

يَتَّبِعُ هَذَا الْبَحْثُ الْمَنْهَجَ الْبَلَاغِيَّ اللُّغَوِيَّ؛ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى التَّحْلِيلِ الْوَصْفِيِّ لِلتَّرَاكِيبِ اللُّغَوِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مَعَ التَّرْكِيزِ عَلَى تَفَاعُلِ الْكَلِمَاتِ وَالتَّرَاكِيبِ فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى الْقُرْآنِيِّ.

الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ:

لمْ يَتَنَاوَلْ أَحَدٌ -فِي حُدُودِ عِلْمِي- مَوْضُوعَ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى وَجْهِ الاِسْتِقْلَالِ، وَلَكِنْ تُوجَدُ دِرَاسَاتٌ عِدَّةٌ تَنَاوَلَتِ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى بِوَجْهٍ عَامٍّ، مُسْتَعْرِضَةً الْجَوَانِبَ الْبَلَاغِيَّةَ وَاللُّغَوِيَّةَ.

خُطَّةُ الْبَحْثِ:

يَتَأَلَّفُ الْبَحْثُ مِنْ مُقَدِّمَةٍ، وَخَاتِمَةٍ، تَتَخَلَّلُهُمَا أَرْبَعَةُ مَبَاحِثَ رَئِيسَةٍ، وَذَلِكَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

1. مُقَدِّمَةٌ
2. مَفْهُومُ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
3. التَّفَاعُلُ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ.
4. أَمْثِلَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ عَلَى التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى.
5. دَوْرُ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.
6. الْخَاتِمَةُ

2. مَفْهُومُ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

1.2. الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ:

اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ -كَغَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ- تَتَكَوَّنُ مِنْ مُكَوِّنَيْنِ أَسَاسَيْنِ لَا غِنَى عَنْ أَحَدِهِمَا لِفَهْمِ الْآخَرِ؛ وَهُمَا: الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى، وَلِذَا قَالَ الخَطَّابِيُّ: "وَإِنَّمَا يَقُومُ الْكَلَامُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ: لَفْظٌ حَامِلٌ، وَمَعْنًى بِهِ قَائِمٌ، وَرِبَاطٌ لَهُمَا نَاظِمٌ"(1).

فَالْمَعْنَى هُوَ دِلَالَةُ اللَّفْظِ أَوِ الْجُمْلَةِ عَلَى شَيْءٍ مَا، سَوَاءٌ أَكَانَ مَحْسُوسًا أَمْ مَعْنَوِيًّا.

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَتَجَسَّدُ الْمَعْنَى فِي الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي يُرَادُ تَوْجِيهُهَا إِلَى الْإِنْسَانِ؛ إِذْ كُلُّ آيَةٍ وَكُلُّ كَلِمَةٍ فِي الْقُرْآنِ تَحْمِلُ مَغْزًى يُمْكِنُ أَنْ يَتَنَوَّعَ تَفْسِيرُهُ حَسَبَ السِّيَاقِ.

وَأَمَّا الْمَبْنَى؛ فَهُوَ الْبِنْيَةُ اللُّغَوِيَّةُ لِلْكَلِمَاتِ وَالْجُمَلِ، أَيْ: التَّرَاكِيبُ النَّحْوِيَّةُ وَالصَّرْفِيَّةُ الَّتِي تُسَاهِمُ فِي بِنَاءِ النَّصِّ اللُّغَوِيِّ. وَيَشْمَلُ الْمَبْنَى تَرْتِيبَ الْكَلِمَاتِ فِي الْجُمَلِ، وَاخْتِيَارَ الْأَفْعَالِ وَالْأَنْمَاطِ اللُّغَوِيَّةِ، مِثْلَ الْمَاضِي أَوِ الْمُضَارِعِ، والرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَغَيْرِهَا.

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يُشَكِّلُ الْمَبْنَى جُزْءًا لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ تَأْثِيرِ النَّصِّ الْبَلَاغِيِّ عَلَى الْمُتَلَقِّي.

وَفِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ لَا يُمْكِنُ فَصْلُ الْمَعْنَى عَنِ الْمَبْنَى، بَلْ إِنَّ الْمَبْنَى هُوَ الْأَدَاةُ الَّتِي تُنْقَلُ مِنْ خِلَالِهَا الدِّلَالَةُ. فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ؛ يُمْكِنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ الْمَعْنَى بِالْكُلِّيَّةِ إِذَا غُيِّرَ تَرْتِيبُ الْكَلِمَاتِ أَوِ اسْتِخْدَامُ أُسْلُوبٍ لُغَوِيٍّ آخَرَ، فَمِثَالُ الْأَوَّلِ: ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى، أَوْ: ضَرَبَ عِيسَى مُوسَى؛ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ هُوَ الْمُتَقَدِّمَ؛

(1) الخطابي، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص:27.

لِعَدَمِ ظُهُورِ الْإِعْرَابِ وَعَدَمِ الْقَرِينَةِ[1]. وَمِثَالُ الثَّانِي: مُحَمَّدٌ قَائِمٌ، أَوْ لَا قَائِمَ إِلَّا مُحَمَّدٌ، فَ (مُحَمَّدٌ قَائِمٌ) يُثْبِتُ الْقِيَامَ لِمُحَمَّدٍ، وَلَكِنَّ غَيْرَهُ مَسْكُوتٌ عَنْهُ، بِخِلَافِ قَوْلِكَ: (لَا قَائِمَ إِلَّا مُحَمَّدٌ)؛ فَإِنَّهُ يُثْبِتُ الْقِيَامَ لَهُ وَيَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ.

إِنَّ كُلَّ تَغْيِيرٍ فِي الْمَبْنَى يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ تَغْيِيرٌ دِلَالِيٌّ فِي الْمَعْنَى، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فَائِقًا فِي دِقَّةِ اخْتِيَارِ كَلِمَاتِهِ وَتَرْكِيبِ جُمَلِهِ، وَلِذَا قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: "كِتَابُ اللَّهِ لَوْ نُزِعَتْ مِنْهُ لَفْظَةٌ، ثُمَّ أُدِيرَ لِسَانُ الْعَرَبِ فِي أَنْ يُوجَدَ أَحْسَنُ مِنْهَا؛ لَمْ يُوجَدْ"[2].

ثُمَّ إِنَّ اخْتِيَارَ الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَتَطَلَّبُ مَبْنًى خَاصًّا يَعْكِسُ هَذَا الْمَعْنَى بِوَجْهٍ دَقِيقٍ. فَمَثَلًا؛ عِنْدَ إِرَادَةِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْقُدْرَةِ الْمُطْلَقَةِ لِلَّهِ تَعَالَى؛ يَسْتَخْدِمُ الْقُرْآنُ الْأُسْلُوبَ الْفِعْلِيَّ فِي الْمُضَارِعِ، مِثْلَ "يَفْعَلُ" وَ"يُرِيدُ"؛ لِيُظْهِرَ الِاسْتِمْرَارِيَّةَ وَالْقُدْرَةَ الْمُتَجَدِّدَةَ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يَس:82]، الْمَبْنَى فِي الْفِعْلِ ﴿يَقُولُ﴾ وَ(يَكُونُ) يَعْكِسُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْدَاثِ الْأَشْيَاءِ بِمُجَرَّدِ الْقَوْلِ، وَأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مُتَجَدِّدٌ مُسْتَمِرٌّ، وَالْكَوْنُ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ تَابِعٌ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَأَمْرِهِ.

كَمَا أَنَّ اخْتِيَارَ الظَّرْفِ أَوِ الْحَرْفِ يُسْهِمُ فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى الْقُرْآنِيِّ بِوَجْهٍ دَقِيقٍ، فَفِي قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾ [النَّحْلِ: 128]، فَإِنَّ الظَّرْفَ (مَعَ) يُشِيرُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْمَعِيَّةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي يُرَادُ بِهَا تَوْفِيقُ اللَّهِ وَتَسْدِيدُهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَحِمَايَتُهُ إِيَّاهُمْ[3].

وَالْمَبْنَى النَّحْوِيُّ الَّذِي جَاءَ فِيهِ حَرْفُ الْعَطْفِ (الْوَاوُ) يُظْهِرُ أَنَّ مَعِيَّةَ اللَّهِ وَتَوْفِيقَهُ تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَّصِفُونَ بِالتَّقْوَى وَالْإِحْسَانِ، وَلِذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: "اتَّقَوُا اللَّهَ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، وَأَحْسَنُوا فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ"[4].

2.2. مَفْهُومُ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى:

إِنَّ فَهْمَ الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَتَطَلَّبُ فَحْصًا دَقِيقًا لِلْمَبْنَى؛ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ مِنْ مُفْرَدَاتٍ وَتَرَاكِيبَ يَتَدَاخَلُ فِيهَا الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى بِوَجْهٍ دَقِيقٍ وَمُتَرَابِطٍ. فَالْمَبْنَى لَيْسَ مُجَرَّدَ وَسِيلَةٍ لُغَوِيَّةٍ لِتَمْثِيلِ الْمَعْنَى، بَلْ هُوَ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنَ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تُحَقِّقُ التَّأْثِيرَ الْعَمِيقَ فِي الْمُتَلَقِّي.

فَالْمَعْنَى لَا يُفْهَمُ دُونَ الْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِسَبَبِ الْعِنَايَةِ الدَّقِيقَةِ بِاخْتِيَارِ الْأُسْلُوبِ وَالتَّرْكِيبِ اللُّغَوِيِّ الْمُنَاسِبِ.

(1) ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، ص:184.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز، 52/1.
(3) الفوزان، حصول المأمول، ص:141.
(4) الواحدي، التفسير البسيط، 239/13.

إِنَّ التَّفَاعُلَ بَيْنَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى يُعَدُّ أَحَدَ الْعَوَامِلِ الرَّئِيسَةِ الَّتِي تُسْهِمُ فِي إِيصَالِ الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِوُضُوحٍ وَقُوَّةِ تَأْثِيرٍ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ [فُصِّلَتْ: 19]؛ نَجِدُ أَنَّ بِنَاءَ الْفِعْلِ ﴿يُحْشَرُ﴾ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ -فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ[1]- يُشِيرُ إِلَى التَّرْكِيزِ عَلَى الْحَشْرِ نَفْسِهِ بِاعْتِبَارِهِ حَدَثًا جَلَلًا.

فَالْبَلَاغَةُ اللُّغَوِيَّةُ هِيَ الْفَنُّ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنِ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى؛ حَيْثُ يَعْتَمِدُ اخْتِيَارُ الْأُسْلُوبِ الْبَلَاغِيِّ الْمُنَاسِبِ عَلَى نَوْعِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ تَوْصِيلُهُ.

إِنَّ الْبَلَاغَةَ الْقُرْآنِيَّةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ جَمَالِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ، بَلْ هِيَ آلِيَّةٌ دَقِيقَةٌ تُسْتَخْدَمُ لِتَوْجِيهِ الْمَعْنَى وَتَحْقِيقِهِ عَبْرَ أَسَالِيبَ فَنِّيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِثْلَ الِاسْتِفْهَامِ، وَالتَّوْكِيدِ، وَالِاسْتِعَارَةِ، وَالتَّشْبِيهِ، وَغَيْرِهَا.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الْإِخْلَاصُ: 1]؛ جَاءَ الْمَبْنَى فِي جُمْلَةِ مَقُولِ الْقَوْلِ جُمْلَةً اسْمِيَّةً تُؤَكِّدُ الِاسْتِمْرَارِيَّةَ فِي الْمَعْنَى، فَكَانَ اخْتِيَارُ الْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ مُعَبِّرًا عَنِ الثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ، مِمَّا يَعْكِسُ التَّوْحِيدَ فِي جَوْهَرِهِ.

كَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [الصَّافَّاتُ: 173]؛ نَجِدُ أَنَّ التَّوْكِيدَ فِي (إِنَّ) وَاللَّامِ وَاسْمِيَّةِ الْجُمْلَةِ يَعْكِسُ الْيَقِينَ وَالثَّبَاتَ فِي الْمَعْنَى، وَيُبْرِزُ قُوَّةَ الرِّسَالَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي انْتِصَارِ الْحَقِّ.

وَيُعَدُّ التَّرْكِيبُ النَّحْوِيُّ مِنْ أَعْمَقِ الْأَدَوَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى، وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ تَقْدِيمَ بَعْضِ الْعَنَاصِرِ اللُّغَوِيَّةِ عَلَى أُخْرَى؛ كَالْحَذْفِ وَالْإِضْمَارِ، وَغَيْرِهَا مِمَّا يُثْرِي النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ وَيُعَمِّقُ أَثَرَهُ فِي النَّفْسِ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ [فُصِّلَتْ: 19]؛ نَجِدُ أَنَّ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ (يَوْمَ) فِي أَوَّلِ الْآيَةِ يُبْرِزُ أَهَمِّيَّةَ الْيَوْمِ وَمَشْهَدِيَّتَهُ حَاضِرَةً فِي ذِهْنِ الْمُتَلَقِّي، فَالتَّقْدِيمُ هُنَا لَهُ دِلَالَةٌ قَوِيَّةٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ هُوَ حَدَثٌ عَظِيمٌ وَفَاصِلٌ فِي مَصِيرِ أَعْدَاءِ اللَّهِ؛ حَيْثُ يُحْشَرُونَ فِيهِ إِلَى النَّارِ. هَذَا الْيَوْمُ لَيْسَ مُجَرَّدَ يَوْمٍ فِي سِلْسِلَةِ الْأَيَّامِ، بَلْ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي سَيَكُونُ فِيهِ الْحَشْرَ وَالْحِسَابُ، مِمَّا يَجْعَلُ الزَّمَانَ يَتَصَدَّرُ الْمَعْنَى بِأَبْعَادِهِ الرَّهِيبَةِ وَالْعَمِيقَةِ.

فَالتَّقْدِيمُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ يُوَجِّهُ ذِهْنَ الْقَارِئِ إِلَى أَهَمِّيَّةِ اللَّحْظَةِ الَّتِي سَيُوزَعُ فِيهَا أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى جَزَائِهِمْ، مِمَّا يُعَزِّزُ مِنْ تَرْكِيزِ الْمُتَلَقِّي عَلَى هَذَا الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ وَيَجْعَلُهُ مَحَطَّ الِانْتِبَاهِ وَالتَّفْكِيرِ.

3. التفاعل بين المعنى والمبنى في النصوص القرآنية

1.3. تأثير التراكيب اللغوية على المعنى في القرآن الكريم:

مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ التَّرَاكِيبَ اللُّغَوِيَّةَ تُؤَدِّي دَوْرًا مِحْوَرِيًّا فِي تَحْدِيدِ الْمَعْنَى فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ حَيْثُ يَعْتَمِدُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ عَلَى التَّرْكِيبِ اللُّغَوِيِّ لِتَوْجِيهِ دِلَالَةٍ مَعَيَّنَةٍ مِنْ خِلَالِ تَقْدِيمِ بَعْضِ الْعَنَاصِرِ عَلَى أُخْرَى، أَوِ اسْتِخْدَامِ أَسَالِيبَ بَلَاغِيَّةٍ، مِثْلَ: التَّوْكِيدِ، وَالْجُمَلِ الشَّرْطِيَّةِ، أَوِ التَّرَاكِيبِ الزَّمَنِيَّةِ.

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، 366/2. وابن عاشور، التحرير والتنوير، 265/24.

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تُوَظَّفُ هَذِهِ التَّرَاكِيبُ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ بِهَدَفِ تَوْضِيحِ الْمَعْنَى وَتَوْجِيهِ الِانْتِبَاهِ إِلَى أَبْعَادٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ. وَسَنُورِدُ بَعْضَ الْأَمْثِلَةِ الَّتِي تُبْرِزُ هَذَا التَّفَاعُلَ بَيْنَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى:

فَمَثَلًا: تَقْدِيمُ الْكَلِمَاتِ وَتَأْخِيرُهَا يُسْتَخْدَمُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِغَرَضٍ بَلَاغِيٍّ كَإِرَادَةِ الِاهْتِمَامِ أَوِ التَّخْصِيصِ، أَوِ التَّأْكِيدِ عَلَى بَعْضِ الْمُفْرَدَاتِ أَوِ الْأَفْكَارِ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ**﴾ [السَّجْدَةُ: 14]؛ نَجِدُ أَنَّ تَقْدِيمَ ﴿**فَذُوقُوا**﴾ عَلَى ﴿**بِمَا نَسِيتُمْ**﴾ يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّ الْفِعْلَ – وَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْعِقَابِ- هُوَ مَا يَسْتَحِقُّ التَّأْكِيدَ، فَالْعِقَابُ هُوَ نَتِيجَةٌ لِمَا فَرَّطُوا فِيهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ تَقْدِيمَ مَا يُشْعِرُ بِالْعَذَابِ يُنَاسِبُ سِيَاقَ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ. فَالتَّقْدِيمُ لَهُ نُكْتَةٌ، وَإِنْ كَانَ تَقْدِيمُ الْفِعْلِ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ هُوَ الْأَصْلَ، إِلَّا أَنَّ جَرَيَانَ التَّرْكِيبِ عَلَى الْأَصْلِ لَا يَمْنَعُ مِنْ تَضَمُّنِهِ نِكَاتٍ بَلَاغِيَّةً[1].

وَكَذَا الْحَالُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجُمَلِ الشَّرْطِيَّةِ؛ فَإِنَّهَا تُسْهِمُ فِي إِبْرَازِ الْعَلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ بَيْنَ الْأَحْدَاثِ وَالنَّتَائِجِ. وَقَدْ تُسْتَخْدَمُ هَذِهِ الْجُمَلُ لِتَحْدِيدِ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْأَحْدَاثِ وَتَفْسِيرِ ارْتِبَاطِ الْمَعْنَى الزَّمَنِيِّ. وَتَخْتَلِفُ تَفَاصِيلُ ذَلِكَ بِحَسَبِ أَدَاةِ الشَّرْطِ الَّتِي رُبِطَتْ بِهِ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ**﴾ [مُحَمَّدٌ: 7]؛ نَجِدُ أَنَّ الشَّرْطَ هُوَ ﴿**إِنْ تَنْصُرُوا**﴾، وَجَوَابُهُ: ﴿**يَنْصُرْكُمْ**﴾، هَذَا التَّوْظِيفُ اللُّغَوِيُّ يُظْهِرُ عَلَاقَةً حَتْمِيَّةً بَيْنَ السَّبَبِ وَالنَّتِيجَةِ، وَيُؤَكِّدُ أَهَمِّيَّةَ الْعَمَلِ الصَّادِقِ لِلوُصُولِ إِلَى النَّصْرِ. وَتَعْلِيقُ الشَّرْطِ بِـ ﴿**إِنْ**﴾ -وَهِيَ حَرْفٌ دَالٌّ عَلَى عَدَمِ الْجَزْمِ بِوُقُوعِ الشَّرْطِ[2]- يَدُلُّ عَلَى مَكَانَةِ الْعَمَلِ لِنَصْرِ دِينِ اللهِ تَعَالَى وَجَدِّيَّتِهِ وَصُعُوبَتِهِ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ النَّصْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بَعْدَ بَذْلِ كُلِّ وُسْعٍ فِي طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَحْقِيقِ شَرْعِهِ، كَمَا يُومِئُ إِلَى ذَلِكَ الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ ﴿**تَنْصُرُوا**﴾ الدَّالُّ عَلَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ.

كَمَا أَنَّ أُسْلُوبَ التَّوْكِيدِ لَهُ دَوْرٌ مُهِمٌّ فِي التَّأْثِيرِ عَلَى التَّرْكِيزِ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [الْبَقَرَةُ: 173]، جَاءَ التَّوْكِيدُ بِذِكْرِ (إِنَّ) لِتَزْيِدِ الثِّقَةِ بِالْمَعْنَى وَالتَّأْكِيدِ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَغُفْرَانِهِ، وَيُقَوِّي ذَلِكَ صَوْغُ الْجُمْلَةِ بِصِيغَةِ الِاسْمِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ.

وَعِنْدَ دِرَاسَةِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ بِتَأَمُّلٍ وَتَدَبُّرٍ؛ نَجِدُ أَنَّ التَّرَاكِيبَ اللُّغَوِيَّةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَرْتِيبٍ لِلْكَلِمَاتِ، بَلْ هِيَ أَدَاةٌ مُتْقَنَةٌ تُوَظَّفُ فِي خِدْمَةِ الْمَعْنَى، مِمَّا يَجْعَلُ كُلَّ تَرْكِيبٍ لَهُ أَثَرٌ خَاصٌّ فِي تَأْوِيلِ النَّصِّ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**﴾ [الْقَمَرُ: 12]؛ نَجِدُ أَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ فِي الْجُمْلَةِ لَهُ دِلَالَةٌ مُهِمَّةٌ؛ فَالْمَاءُ جَاءَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ لِتَكْتَمِلَ الْمُعْجِزَةُ الْإِلَهِيَّةُ، فَتَقْدِيمُ (فَجَّرْنَا) يُشِيرُ إِلَى الْقُوَّةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي خَلْقِ هَذَا التَّفَاعُلِ بَيْنَ عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ. كَمَا أَنَّ الْعُدُولَ بِـ

(1) الشِّهابُ الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرَّاضي، 229/6.

(2) الصعيدي، بغية الإيضاح، 169/1.

(عُيُونًا) عَنْ أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا بِهِ إِلَى كَوْنِهَا تَمْيِيزًا؛ يُعْطِي الْمَعْنَى عَظَمَةً وَجَلَالًا؛ فَإِنَّ أَصْلَ التَّرْكِيبِ: (وَفَجَّرْنَا عُيُونَ الْأَرْضِ)، وَأَفَادَ قَوْلُهُ ﴿**وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا**﴾ أَنَّ الأَرْضَ قَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى عُيُونٍ مُتَفَجِّرَةٍ فِي جَمِيعِ أَجْزَائِهَا، حَيْثُ كَانَ الْمَاءُ يَثُورُ وَيَتَدَفَّقُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فِيهَا. وَلَوْ جَاءَ النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ: (وَفَجَّرْنَا عُيُونَ الْأَرْضِ)؛ لَمْ يُفِدْ هَذَا الْمَعْنَى، بَلْ يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ الْمَاءَ كَانَ يَخْرُجُ مِنْ عُيُونٍ مُتَفَرِّقَةٍ دَاخِلَ الْأَرْضِ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ انْفِجَارُ الْمَاءِ قَدْ شَمِلَ الْأَرْضَ كُلَّهَا فِي آنٍ وَاحِدٍ مِنْ أَمَاكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ[1].

2.3. الِاخْتِيَارَاتُ اللَّفْظِيَّةُ وَ أَثَرُهَا فِي الْمَعْنَى الْقُرْآنِيّ:

إِنَّ اخْتِيَارَ الْكَلِمَاتِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَيْسَ مُجَرَّدَ اخْتِيَارٍ لُغَوِيٍّ، بَلْ هُوَ اخْتِيَارٌ دَقِيقٌ يَعْكِسُ حِكْمَةً إِلَهِيَّةً عَظِيمَةً. فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَا يَتَضَمَّنُ أَبَدًا كَلِمَاتٍ لَا مَغْزَى لَهَا؛ بَلْ كُلُّ كَلِمَةٍ مَوْزُونَةٌ بِمَا يَتَلَاءَمُ مَعَ السِّيَاقِ وَيَدْعَمُ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ.

وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ تُؤَدِّي كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ إِلَى تَغْيِيرٍ جَوْهَرِيٍّ فِي الْمَعْنَى، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا**﴾ [ق: 7]، حَيْثُ اخْتَارَ النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ ﴿**مَدَدْنَاهَا**﴾ بدَلًا من (مَدَّها)، فَأُسْنِدَ الْفِعْلُ إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ (نَا) بَدَلًا مِنْ ضَمِيرِ الْغَائِبِ (هَا)، وَتَرَتَّبَ عَلَى إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ فَكُّ الْإِدْغَامِ وِفْقًا لِقَانُونِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ؛ وَهَذَا الْفَكُّ ﴿**مَدَدْنَاهَا**﴾ يُعْطِي مَعْنًى أَوْسَعَ وَأَشْمَلَ فِي تَصْوِيرِ هَذِهِ السَّعَةِ وَهَذَا الْمَدِّ، وَيُظْهِرُ بِوَجْهٍ أَكْبَرَ رَحَابَةَ الْأَرْضِ وَتَمَدُّدَها عَلَى نَحْوٍ مُتَنَاسِقٍ، وَهُوَ مَا يَخْتَلِفُ عَنْ (مَدَّهَا) الَّتِي قَدْ تَقتَصِرُ عَلَى الدِّلَالَةِ الْأَصْلِيَّةِ لِلْمَدِّ أَوِ التَّوْسِيعِ، مَعَ مَا فِي إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ، وَإِدْخَالِ الرَّهْبَةِ عَلَى الْمُتَلَقِّي.

وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ أَيْضًا: كَلِمَةُ (الرَّحْمَةِ) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّهَا تُسْتَخْدَمُ فِي مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَرْحَمُ الْعِبَادَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَشْمَلُ ذَلِكَ الْمَغْفِرَةَ، وَالنَّجَاةَ مِنَ الْبَلَاءِ، وَالْعَطْفَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَذَكَرَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ أَنَّ الرَّحْمَةَ تَرِدُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى سِتَّةَ عَشَرَ وَجْهًا، ثُمَّ نَقَلَ عَمَّنْ لَمْ يُسَمِّهِ وَجْهًا آخَرَ، فَصَارَتِ الْأَوْجُهُ سَبْعَةَ عَشَرَ وَجْهًا[2].

وَسَأَكْتَفِي بِذِكْرِ ثَلَاثَةِ مَعَانٍ لِلرَّحْمَةِ؛ تَنْبِيهًا عَلَى مَا وَرَاءَهَا مِنَ الْمَعَانِي وَإِشَارَةً إِلَى سَعَتِهَا وَكَثْرَتِهَا، وَاخْتِلَافِ دِلَالَتِهَا بِحَسَبِ السِّيَاقِ، وَأَثَرِ هَذَا الِاخْتِلَافِ فِي فَهْمِ الْمَعْنَى.

أَوَّلًا: تَرِدُ الرَّحْمَةُ بِمَعْنَى الْجَنَّةِ؛ حَيْثُ تُعَبِّرُ عَنِ الْجَزَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَحْظَى بِهِ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْآخِرَةِ، فَيُوَفَّقُ الْمُؤْمِنُونَ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ مَوْطِنُ الرَّحْمَةِ وَمَحَلُّهَا، حَيْثُ لَا يُصِيبُهُمْ فِيهَا أَيُّ ضَرَرٍ أَوْ شَقَاءٍ، وَذَلِكَ كَالْوَارِدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ**﴾ [البَقَرَة: 218].

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:102.

(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص:331-334.

فَالرَّحْمَةُ هُنَا تَتَجَلَّى فِي أَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ جُزْءٌ مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ ٱلْكُبْرَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ يَطْمَحُونَ إِلَيْهَا بِصَبْرِهِمْ وَٱتِّبَاعِهِمْ لِلْحَقِّ.

ثَانِيًا: تَرِدُ الرَّحْمَةُ مُرَادًا بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ؛ إِذِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَفْسُهُ يُعَدُّ مِنْ أَعْظَمِ مُظَاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ، فَهُوَ شِفَاءٌ لِلْقُلُوبِ وَهُدًى لِلْعُقُولِ، وَيُعَدُّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْمَصْدَرَ الَّذِي يَعُمُّ فِيهِ الْخَيْرُ وَالرَّحْمَةُ لِلْبَشَرِيَّةِ، وَبِهِ تَتَجَلَّى مَعَانِي الْهِدَايَةِ وَالرَّحْمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَذَلِكَ كَالْوَارِدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾ [يُونُسُ: 58].

ثَالِثًا: تَرِدُ الرَّحْمَةُ بِمَعْنَى الْمَطَرِ؛ فَالْمَطَرُ يُعَدُّ مِنْ مُظَاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ، حَيْثُ يُنَزِّلُ اللهُ تَعَالَى الْمَطَرَ لِيُرْوِيَ الْأَرْضَ وَيُحْيِيَ النَّبَاتَ وَيُطْعِمَ النَّاسَ، وَبِذَلِكَ، يَعْكِسُ الْمَطَرُ نِعْمَةَ الرَّحْمَةِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي تَضْمَنُ اسْتِمْرَارِيَّةَ الْحَيَاةِ. وَذَلِكَ كَالْوَارِدِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**﴾[الأعراف:57]،

وَالرَّحْمَةُ فِي الْمَطَرِ تَتَجَلَّى فِي أَنَّهُ لَيْسَ نُزُولَ مَاءٍ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ وَسِيلَةٌ لِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ وَالْإِنسَانِ، مِمَّا يَضْمَنُ لِلْإِنسَانِ اسْتِمْرَارَ الْعَيْشِ فِي بِيئَةٍ خَصْبَةٍ وَمِعْطَاءَةٍ.

3.3. الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى فِي الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ

تُعَدُّ الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنَ الْأَدَوَاتِ الرَّئِيسَةِ الَّتِي تُسْهِمُ فِي بِنَاءِ الْمَعْنَى الْعَمِيقِ وَتَعْزِيزِ جَمَالِيَّةِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، حَيْثُ تَتَنَوَّعُ هَذِهِ الْأَسَالِيبُ وَتُظْهِرُ قُدْرَتَهَا عَلَى التَّأْثِيرِ الْفَعَّالِ فِي الْقَارِئِ. مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ نَجِدُ الطِّبَاقَ، وَالْمُقَابَلَةَ، وَالِاسْتِفْهَامَ، وَالتَّكْرَارَ، وَكُلٌّ مِنْهَا يُسْهِمُ فِي إِضْفَاءِ قُوَّةٍ وَوُضُوحٍ عَلَى الْمَعَانِي الْمُرَادَةِ.

فَأَمَّا الطِّبَاقُ؛ فَيُعَدُّ مِنْ أَبْرَزِ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. هَذَا الْأُسْلُوبُ يَعْمَلُ عَلَى التَّبَايُنِ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ[1]، مِمَّا يُبْرِزُ جَمَالَ النَّصِّ وَيُعَمِّقُ الْمَعْنَى.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا**﴾ [النجم:44]،

فَالطِّبَاقُ وَاقِعٌ بَيْنَ كَلِمَتَيْ: (أَمَاتَ) وَ(أَحْيَا)، حَيْثُ تَتَقَابَلُ الْمَعَانِي فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ، وَهَذَا التَّقَابُلُ يُبْرِزُ قُدْرَةَ اللَّهِ الْمُطْلَقَةَ عَلَى إِحْيَاءِ مَنْ يَمُوتُ، وَيُوَضِّحُ الْقُوَّةَ الْإِلَهِيَّةَ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّقِيضَيْنِ فِي خَلْقِ الْكَوْنِ.

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى**﴾ [النجم:43]

وَيَتَجَلَّى الطِّبَاقُ فِي (أَضْحَكَ) وَ(أَبْكَى)، حَيْثُ يُبْرِزُ التَّقَابُلُ بَيْنَ مَظَاهِرِ السُّرُورِ وَالْحُزْنِ[2]، مِمَّا يُؤَكِّدُ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى إِحْدَاثِ الْمَشَاعِرِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلنَّاسِ، وَيُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي حَيَاتِهِمْ بِجَمِيعِ تَفَاصِيلِهَا.

(1) الطباق: الجمع بين اللفظ وضده في كلام واحد، أو هو الجمع بين معنيين متقابلين. يُنظر: المراغي، علوم البلاغة، ص:320.

(2) يجوز أن تكون الآية من باب إيهام التضاد؛ إذ حُمل (أضحك) على معنى: أضحك الأرض بالنبات، و(أبكى) أي: السماء بالماء. وهو تفسير منقول عن بعض التابعين، كالضَّحَّاك بن مزاحم. وهو تفسير على خلاف الظاهر. يُنظر: الواحدي، التفسير البسيط، 72/21. وابن الجوزي، زاد المسير، 193/4. والقِنّوجي، فتح البيان، 274//13.

وَأَمَّا الْمُقَابَلَةُ؛ فَهِيَ التَّبَايُنُ بَيْنَ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ[1]. مِمَّا يُسَاهِمُ فِي إِبْرَازِ الْمَعْنَى وَتَأْكِيدِهِ بِطَرِيقَةٍ تُثِيرُ الِانْتِبَاهَ وَتَزِيدُ مِنْ أَثَرِ النَّصِّ، كَمَا فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار:13-14].

فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَتَجَلَّى الْمُقَابَلَةُ بَيْنَ (الْأَبْرَار) و(النَّعِيمِ) مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ (الْفُجَّارِ) وَ(الْجَحِيمِ) مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَالنَّعِيمُ يُمَثِّلُ مَصِيرَ الْأَبْرَارِ، وَالْجَحِيمِ يُمَثِّلُ مَصِيرَ الْفُجَّارِ. فَهُنَا يَظْهَرُ التَّقَابُلُ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ: جَانِبُ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُحْسِنِينَ، وَجَانِبُ الْعِقَابِ وَالْجَزَاءِ لِلْكَافِرِينَ الْمُذْنِبِينَ.

وَيُبْرِزُ هَذَا التَّقَابُلُ عَدْلَ اللَّهِ تَعَالَى فِي مُعَامَلَتِهِ عِبَادَهُ، فَكُلٌّ يُجَازَى بِمَا عَمِلَ. كَمَا أَنَّ التَّقَابُلَ بَيْنَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ يُمَثِّلُ بَاعِثًا عَلَى التَّفَكُّرِ فِي عَوَاقِبِ الْأَعْمَالِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ.

كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْمُقَابَلَةَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ تُسْهِمُ فِي إِثَارَةِ الْمَشَاعِرِ وَجَذْبِ الِانْتِبَاهِ، مِمَّا يَجْعَلُ الْمَعَانِي أَكْثَرَ وَضُوحًا وَأَقْوَى تَأْثِيرًا فِي النُّفُوسِ.

وَأَمَّا الِاسْتِفْهَامُ؛ فَيُسْتَخْدَمُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِأَغْرَاضٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا[2]، مِنْ ذَلِكَ إِرَادَةُ تَحْفِيزِ الْمُتَلَقِّي عَلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّفْكِيرِ فِي الْمَعْنَى.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ [الطُّورُ: 35]، الِاسْتِفْهَامُ هُنَا يَفْتَحُ الْمَجَالَ لِلتَّفْكِيرِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ.

وَقَدِ اشْتَمَلَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى أُسْلُوبِ السَّبْرِ وَالتَّقْسِيمِ[3] فِي أَبْلَغِ صُوَرِهِ؛ حيثُ ذُكِرَ احْتِمَالَانِ لِخَلْقِ الإِنْسَانِ: هَلْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ؟ وَهُوَ أَمْرٌ يَنْفِيهِ الْعَقْلُ؛ إِذِ الْعَدَمُ لَا يُنْتِجُ وُجُودًا. أَمْ أَنَّهُمْ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ؟ وهوَ مُسْتَحِيلٌ؛ لِأَنَّ المَخْلُوقَ لَا يَمْلِكُ وُجُودَهُ قَبْلَ خَلْقِهِ، وَمِنِ اسْتِبْعَادِ هَذَيْنِ الاحْتِمَالَيْنِ؛ تَتَجَلَّى الْحَقِيقَةُ الْوَحِيدَةُ الْمُحْتَمَلَةُ؛ وَهِيَ وُجُودُ خَالِقٍ عَلِيمٍ قَدِيرٍ، وَقَدْ طُوِيَ التَّصْرِيحُ بِهَذَا الِاحْتِمَالِ الثَّالِثِ؛ حَثًّا لِلنَّاسِ عَلَى التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ. هَذَا الأُسْلُوبُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْمَنْطِقِ الْفِطْرِيِّ وَالدَّعْوَةِ لِلتَّفَكُّرِ الْعَمِيقِ، مُرَسِّخًا الْإِيمَانَ بِالْحَقِيقَةِ الْكُبْرَى بِأُسْلُوبٍ عَقْلِيٍّ مُقْنِعٍ يُخَاطِبُ الْفِطْرَةَ وَالْعَقْلَ مَعًا.

وَأَمَّا التَّكْرَارُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَإِنَّ لَهُ دِلَالَةً كَبِيرَةً فِي تَأْكِيدِ الْمَعْنَى وَإِبْرَازِهِ. فَتَكْرَارُ الْكَلِمَةِ أَوِ الْجُمْلَةِ يَعْمَلُ عَلَى زِيَادَةِ تَقْوِيَةِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ.

مِثَالُ قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿**كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ**﴾ [النَّبَأُ:4-5]، فَالتَّكْرَارُ فِي الْآيَتَيْنِ يُرَادُ بِهِ تَوكِيدُ[4] الْوَعِيدِ وَالإِنْذَارِ الشَّدِيدِ لِلكُفَّارِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ، حَيْثُ يُرَسِّخُ التَّكْرَارُ الْمَعْنَى فِي النَّفْسِ وَيُبْرِزُ

(1) المقابلة: أن يجمع بين معنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب. يُنظر: حسن إسماعيل، البلاغة الصافية، ص:260.

(2) يُنظر: عبد الله المعزبي اليماني، تشحيذ الأفهام في إطلاقات الأمر والنهي والاستفهام، ص:83-88.

(3) يُنظر: الجيزاني، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، ص: 203.

(4) المراغي، علوم البلاغة، ص:193.

تَصَاعُدَ التَّهْدِيدِ وَقُوَّتَهُ[1]. وَكَلِمَةُ (ثُمَّ) تُوحِي بِتَدَرُّجِ الْعِلْمِ بِالأَمْرِ بَيْنَ مَرْحَلَتَيْنِ؛ الْأُولَى عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ بَدَايَةِ الْحِسَابِ، وَالْأُخْرَى عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ[2]، مِمَّا يَزِيدُ مِنْ شِدَّةِ التَّحْذِيرِ. وَيُضْفِي التَّكْرَارُ رَهْبَةً تُنَاسِبُ مَقَامَ التَّهْدِيدِ؛ لِيَعْظُمَ مِنْ تَأْثِيرِ الْآيَةِ نَفْسِيًّا وَبَلَاغِيًّا.

4. الْأَمْثِلَةُ التَّطْبِيقِيَّةُ عَلَى التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

1.4. دِرَاسَةُ نَمَاذِجَ قُرْآنِيَّةٍ مِنَ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى:

يَعُدُّ التَّفَاعُلُ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى مِنْ أَهَمِّ أَبْعَادِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، حَيْثُ إِنَّ التَّرْكِيبَ اللُّغَوِيَّ فِي الْقُرْآنِ يُسْهِمُ بِوَجْهٍ كَبِيرٍ فِي تَحْقِيقِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ. وَيَظْهَرُ ذَلِكَ بِوُضُوحٍ مِنْ خِلَالِ اخْتِيَارَاتِ الْأَلْفَاظِ، وَتَرْتِيبِ الْجُمَلِ، وَأَسَالِيبِ التَّعْبِيرِ الَّتِي تُسْهِمُ فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى بِوَجْهٍ دَقِيقٍ.

وَلِإِظْهَارِ كَيْفَ يَعْمَلُ التَّفَاعُلُ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الكَرِيمِ، سَنَسْتَعْرِضُ بَعْضَ الآيَاتِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِيهَا بَلَاغَةُ التَّرَاكِيبِ اللُّغَوِيَّةِ وَتَأْثِيرُهَا عَلَى الْمَعْنَى:

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ [الجمعة: 1].

تَتَجَلَّى فِيهِ هَذِهِ الْآيَةِ بَلَاغَةٌ قُرْآنِيَّةٌ عَمِيقَةٌ مِنْ خِلَالِ تَقْدِيمِ الفِعْلِ ﴿يُسَبِّحُ﴾ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِيَّةِ؛ لِلدِّلَالَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِيَّةِ التَّسْبِيحِ وَدَوَامِهِ[3]، مَعَ إِسْنَادِ التَّسْبِيحِ إِلَى الِاسْمِ الْمَوْصُولِ (ما) الْمُفِيدِ الْعُمُومَ وَالشُّمُولَ، مِمَّا يُظْهِرُ وِحْدَةَ الخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى لِكُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَذِكْرُ السَّمَاوَاتِ قَبْلَ الْأَرْضِ يَعْكِسُ التَّدَرُّجَ فِي الْعَظَمَةِ وَالْمَكَانَةِ، مَعَ إِيقَاعٍ تَرْكِيبِيٍّ مُتَوَازِنٍ يُعَزِّزُ الْمَعْنَى. هَذَا التَّفَاعُلُ بَيْنَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى يُبْرِزُ شُمُولِيَّةَ التَّسْبِيحِ بِاعْتِبَارِهِ قَانُونًا كُونِيًّا يَعْكِسُ خُضُوعَ كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثَانِيًا: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ [الشُّعَرَاءُ: 63].

فِي هَذِهِ الآيَةِ تَتَّضِحُ بَلَاغَةٌ قُرْآنِيَّةٌ عَمِيقَةٌ فِي تَصْوِيرِ الْحَدَثِ الْعَظِيمِ، فَفِعْلُ ﴿أَوْحَيْنَا﴾ فِي صِيغَةِ الْمَاضِي يُبَرِّزُ تَحَقُّقَ الإِرَادَةِ الإِلٰهِيَّةِ، وَإِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى ضَمِيرِ الْعَظَمَةِ يُقَوِّي هَذَا الْمَعْنَى جَلِيًّا. وَفِعْلُ ﴿اضْرِبْ﴾ فِي صِيغَةِ الأَمْرِ يَفِيدُ الوُجُوبَ وَالإِلْزَامَ فِي تَنْفِيذِ مَا أُوحِي إِلَى مُوسَى بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِعَصَاكَ﴾ يَحْمِلُ بَلَاغَةً فِي تَحْدِيدِ الْأَدَاةِ الَّتِي تَحَقَّقَتْ بِهَا تِلْكَ الْمُعْجِزَةُ، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ يَتَجَاوَزُ الْأَسْبَابَ الْمَادِّيَّةَ الْمَعْهُودَةَ، فَإِذَا كَانَتِ العَصَا -وَهِيَ أَدَاةٌ يَسِيرَةٌ صَغِيرَةٌ- تُؤَثِّرُ فِي شَيْءٍ عَظِيمٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 12/30.
(2) الماوردي، النكت والعيون، 183/6.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 206/28.

كَالبَحْرِ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ جَاءَ بِتَسْخِيرٍ إِلٰهِيٍّ وَقُدْرَةٍ مُطْلَقَةٍ لَا يُحَدُّهَا شَيْءٌ. وَفِي ذَلِكَ تَجَلٍّ لِمَعْنَى التَّوْكِيدِ عَلَى أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُجْرِي مَعَ جُنُودِهِ مَا يَشَاءُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ يُظْهِرُ عَظَمَةَ الْحَوَاجِزِ الَّتِي أُحْدِثَتْ، وَيُرَسِّخُ الصُّورَةَ الذِّهْنِيَّةَ لِمُعْجِزَةٍ تَحْدُثُ فِي قُوَّةٍ وَضَخَامَةٍ فَائِقَتَيْنِ.

هَذَا التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَدَوَاتِ فِي النَّصِ الْقُرْآنِيِّ يُورِثُ تَجَاوُبًا بَلَاغِيًّا بَيْنَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى، فَيُعَزِّزُ مَعْنَى الْوَحْيِ وَقُوَّتِهِ وَيُبَرِّزُ عَظَمَةَ الْمُعْجِزَةِ.

ثَالِثًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ**﴾ [لقمان: 8].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ نُلاحِظُ تَرْتِيبَ الْفِعْلَيْنِ ﴿آمَنُوا﴾ وَ(عَمِلُوا)؛ حَيْثُ جَاءَ الْإِيمَانُ أَوَّلًا؛ لِيُشِيرَ إِلَى أَنَّهُ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ الَّذِي تَنْبَنِي عَلَيْهِ الْأَعْمَالُ وَهُوَ الْحَامِلُ عَلَيْهَا -وَإِنْ كَانَتِ الْأَعْمَالُ مِنْ أَفْرَادِهِ-؛ وَهُوَ الْقَاعِدَةُ الثَّابِتَةُ الَّتِي تُعْطِي الْعَمَلَ مَعْنَاهُ وَقِيمَتَهُ. وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، يُؤَكِّدُ التَّرْتِيبُ التَّلازُمَ بَيْنَ الْعَقِيدَةِ وَالْعَمَلِ، فَلاَ إِيمَانَ دُونَ أَنْ يُثْمِرَ فِي السُّلُوكِ وَالأَعْمَالِ.

فَهُنَاكَ تَنَاغُمٌ بَلَاغِيٌّ بَيْنَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى؛ حَيْثُ جَاءَتِ الصِّيغَةُ الفِعْلِيَّةُ ﴿**آمَنُوا**﴾ وَ(**عَمِلُوا**)؛ لِتَدُلَّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ، فَالْإِيمَانُ لَيْسَ حَالًا سَاكِنَةً، بَلْ هُوَ عَمَلٌ مُسْتَمِرٌّ. وَكَذَلِكَ جَاءَ الْفِعْلَانِ مُسْنَدَيْنِ إِلَى وَاوِ الْجَمَاعَةِ لِلْإِيمَاءِ إِلَى جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَشْتَرِكُونَ فِي العَمَلِ الصَّالِحِ بِاعْتِبَارِهِ وَسِيلَةً لِبِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ.

وَعَلَى الْمُسْتَوَى اللُّغَوِيِّ؛ يُوَفِّرُ حَرْفُ الْوَاوِ بَيْنَ ﴿آمَنُوا﴾ وَ(عَمِلُوا) وَصْلًا جَمِيلًا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لَا يَنْفَصِلُ عَنِ الْإِيمَانِ بِحَالٍ. هَذِهِ الْبِنْيَةُ النَّحْوِيَّةُ تُحَقِّقُ تَنَاغُمًا دَقِيقًا، مِمَّا يُؤَكِّدُ عُمقَ الرِّسَالَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَوُضُوحَ مَقْصِدِهَا فِي الرَّبْطِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالسُّلوكِ.

2.4. دِرَاسَةُ التَّرَاكِيبِ النَّحْوِيَّةِ فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ:

يَعُدُّ التَّرْكِيبُ النَّحْوِيُّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ وَسِيلَةً مُؤَثِّرَةً فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى وَتَعْمِيقِ التَّأْثِيرِ الْبَلَاغِيِّ لِلنَّصِّ القُرْآنِيِّ، وَمِنْ أَبْرَزِ التَّرَاكِيبِ النَّحْوِيَّةِ الَّتِي تُسْهِمُ فِي تَحْقِيقِ الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ: الْإِضَافَةُ وَالْحَذْفُ.

فَأَمَّا الْإِضَافَةُ؛ فَهِيَ تُعَزِّزُ الْمَعْنَى مِنْ خِلَالِ رَبْطِ الْعَنَاصِرِ بِبَعْضِهَا، مَا يَجْعَلُ الْمَفْهُومَ أَكْثَرَ دِقَّةً وَتَرْكِيزًا.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا**﴾ [مَرْيَم: 2]، تُشِيرُ الْإِضَافَةُ بَيْنَ (**رَحْمَةِ**) وَ﴿**رَبِّكَ**﴾ إِلَى رَحْمَةٍ خَاصَّةٍ صَادِرَةٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِمَّا يُؤَكِّدُ عَظَمَتَهَا وَجَلَالَهَا. كَمَا أَنَّ الْإِضَافَةَ فِي ﴿**رَبِّكَ**﴾ إِلَى الضَّمِيرِ تُبْرِزُ مَزِيدَ الْعِنَايَةِ وَالتَّشْرِيفِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، مَعَ التَّنَاغُمِ الْمَعْنَوِيِّ الَّذِي يَرْبِطُ الرَّحْمَةَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَيُؤَكِّدُ قُرْبَ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، مِمَّا يَجْعَلُ الدِّلَالَةَ بَلِيغَةً وَعَمِيقَةً.

وَأَمَّا الْحَذْفُ؛ فَهُوَ أَحَدُ السُّبُلِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِهَدَفِ الْإِيجَازِ وَالْإِشَارَةِ؛ إِذْ يُكْتَفَى بِأَقَلِّ قَدَرٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ لِتَوْصِيلِ الْمَعْنَى.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ الْحَذْفِ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا**﴾ [يوسف: 82]؛ حَيْثُ حُذِفَ لَفْظُ (أَهْل)، وَالْمَعْنَى: وَاسْأَلْ أَهْلَ الْقَرْيَةِ[1]؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَجَاءَ اللَّفْظُ مُوجَزًا وَالدِّلَالَةُ أَوْفَى، مَعَ إِثَارَةِ الْخَيَالِ وَإِشْرَاكِ الْمُتَلَقِّي فِي تَأَمُّلِ الْمَعْنَى. هَذَا الْحَذْفُ يُوَائِمُ النَّظْمَ الْقُرْآنِيَّ وَيُؤَكِّدُ تَنَاغُمَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى؛ إِذْ إِنَّ ذِكْرَ الْقَرْيَةِ بِصُورَتِهَا الْكُلِّيَّةِ يُضْفِي شُمُولًا عَلَى الشَّهَادَةِ وَيُعَظِّمُهَا، مِمَّا يَخْدُمُ الْمَقَامَ وَيُعَزِّزُ أَثَرَهُ فِي النَّفْسِ.

وَأَمَّا الْقَصْرُ؛ فَإِنَّهُ يُسْهِمُ فِي تَخْصِيصِ الْمَعْنَى وَتَوْجِيهِهِ، مِمَّا يُعَزِّزُ الْإِحَاطَةَ بِمَقْصُودِ الْكَلَامِ وَيُبْرِزُ مَدَى دِقَّةِ التَّعْبِيرِ فِي النَّصِّ.

فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفَاتِحَةُ: 5]؛ يَتَجَلَّى أُسْلُوبُ **القَصْرِ** مِنْ خِلَالِ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ بِهِ ﴿إِيَّاكَ﴾ عَلَى الفِعْلِ ﴿نَعْبُدُ﴾ وَ﴿نَسْتَعِينُ﴾، مِمَّا يُخَصِّصُ الْعِبَادَةَ وَالاسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ، فِي تَأْكِيدٍ قَاطِعٍ عَلَى تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ. وَيُعَزِّزُ التَّكْرَارُ فِي (إِيَّاكَ) التَّفْرِيقَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ بِاعْتِبَارِهَا غَايَةً وَالاسْتِعَانَةِ بِاعْتِبَارِهَا وَسِيلَةً لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ، مِمَّا يُبْرِزُ الْمَعْنَى بِأَعْلَى دَرَجَاتِ الْوُضُوحِ وَالتَّرْكِيزِ.

كَمَا أَنَّ التَّنَاغُمَ بَيْنَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى يَظْهَرُ فِي الصِّيَاغَةِ النَّحْوِيَّةِ الْمُحْكَمَةِ؛ حَيْثُ إِنَّ تَقْدِيمَ الْمَفْعُولِ يَجْعَلُ الْمَعْنَى قَوِيًّا وَرَاسِخًا فِي ذِهْنِ الْمُتَلَقِّي. كَمَا أَنَّ الفَصْلَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ يُؤَكِّدُ أَهَمِّيَّةَ الْعِبَادَةِ بِاعْتِبَارِهَا أَصْلًا يُبْتَدَأُ بِهِ، بَيْنَمَا الاسْتِعَانَةُ وَسِيلَةٌ تُسَخَّرُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ[2]، مِمَّا يَعْكِسُ عُمْقَ بَلَاغَةِ النَّصِّ فِي إِيصَالِ التَّوْحِيدِ بِأَدَقِّ أُسْلُوبٍ وَأَبْلَغِهِ.

3.4. تَأْثِيرُ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى عَلَى الْمُتَلَقِّي:

إِنَّ التَّفاعُلَ بَيْنَ الْمَبْنَى (التَّرْكِيبِ اللُّغَوِيِّ) وَالْمَعْنَى فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَوْجِيهِ دِلَالَةٍ، بَلْ هُوَ أَدَاةٌ فَعَّالَةٌ تُؤَثِّرُ بِوَجْهٍ عَمِيقٍ فِي الْمُتَلَقِّي. هَذَا التَّفاعُلُ يُسْهِمُ فِي تَحْفِيزِ الْفِكْرِ وَالِاستِيعَابِ لَدَى الْقَارِئِ، وَيُعَزِّزُ مِنْ إِدْرَاكِهِ لِلْمَعَانِي الْمُتَضَمَّنَةِ فِي الْآيَاتِ.

وَالتَّفاعُلُ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى فَهْمِ الْمَعْنَى الْحَرْفِيِّ فَقَطْ، بَلْ يَشْمَلُ أَيْضًا التَّأَمُّلَ فِي الْأَبْعَادِ الرُّوحِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ، فَمِنْ خِلَالِ استِخْدَامِ التَّراكِيبِ يُحَفِّزُ الْقُرْآنُ الْقَارِئَ عَلَى التَّفْكِيرِ الْعَمِيقِ فِي الْآيَاتِ.

كَمَا يَعْتَمِدُ التَّرْكِيبُ اللُّغَوِيُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى إِثَارَةِ السُّؤَالِ وَطَرْحِ التَّحَدِّيَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَهْدِفُ إِلَى جَذْبِ اِنْتِبَاهِ الْمُتَلَقِّي نَحْوَ الْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ.

فَمِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾ [الذاريات: 50]، فَإِنَّ التَّنَاغُمَ بَيْنَ الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى يَتَجَلَّى فِي اخْتِيَارِ فِعْلِ ﴿فَفِرُّوا﴾ الَّذِي يَحْمِلُ فِي بِنَائِهِ دِلَالَةَ السُّرْعَةِ وَالْعَجَلَةِ، مَعَ إِثَارَةِ صُورَةٍ ذِهْنِيَّةٍ قَوِيَّةٍ لِلْفِرَارِ مِمَّا

(1) هذا قول الأكثر، وفي الآية قول آخر. يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 246/9.

(2) ابن القيم، مدارج السالكين، 1-97.

يُخِيفُ إِلَى مَا يُؤَمِّنُ وَيُطَمْئِنُ. كَمَا أَنَّ الْقَيْدَ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يُوَجِّهُ الْمَعْنَى نَحْوَ اللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْقَلْبِ لَهُ. وَالإِيجَازُ فِي التَّعْبِيرِ يُبْرِزُ قُوَّةَ النِّدَاءِ وَشِدَّةَ الضَّرُورَةِ، فَيَكُونُ لِلْعِبَارَةِ وَقْعٌ قَوِيٌّ فِي نَفْسِ الْقَارِئِ، مَعَ التَّوْجِيهِ لِلتَّفَكُّرِ فِي مَغْزَى الْفِرَارِ إِلَى اللَّهِ بِاعْتِبَارِهِ مَأْمَنًا وَمَلْجَأً.

5. دَوْرُ التفاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي تفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

1.5. دَوْرُ الْبَلَاغَةِ فِي تَفْسِيرِ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ:

تُعَدُّ الْبَلَاغَةُ مِنْ أَهَمِّ الْأَدَوَاتِ الَّتِي تُسْهِمُ فِي فَهْمِ الْمَعَانِي الْعَمِيقَةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ. وَلَا يَقْتَصِرُ دَوْرُ الْبَلَاغَةِ عَلَى مُجَرَّدِ نَقْلِ الْمَعْنَى لِظَاهِرِ الْكَلِمَاتِ، بَلْ تَتَجَاوَزُ ذَلِكَ إِلَى فَهْمِ الرِّسَالَةِ الْإِلٰهِيَّةِ بِكُلِّ أَبْعَادِهَا الرُّوحِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ.

إِنَّ الْبَلَاغَةَ الْقُرْآنِيَّةَ تُوَفِّرُ أَدِلَّةً إِضَافِيَّةً تُسْهِمُ فِي تَوْجِيهِ الْقَارِئِ نَحْوَ أَعْمَقِ الْمَفَاهِيمِ، فَهِيَ وَسِيلَةٌ فَعَّالَةٌ لِإِيصَالِ الْمَعَانِي الْعَمِيقَةِ الَّتِي قَدْ لَا تَظْهَرُ إِذَا اكْتُفِيَ بِالتَّفْسِيرِ السَّطْحِيِّ لِلْأَلْفَاظِ.

فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ؛ نَجِدُ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ أَوِ الْحَذْفِ تَأْثِيرًا بَالِغًا عَلَى دِلَالَةِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، فَتَقْدِيمُ فِعْلٍ مَا عَلَى آخَرَ، أَوْ حَذْفُ جُزْءٍ مِنَ الْجُمْلَةِ؛ يُمْكِنُ أَنْ يُسْهِمَ فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى نَحْوَ مَقْصِدٍ مُعَيَّنٍ بَعِيدٍ عَنِ الدِّلَالَةِ السَّطْحِيَّةِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 156]، نَجِدُ أَنْ تَقْدِيمَ الْفِعْلِ ﴿يُحْيِي﴾ عَلَى (يُمِيتُ) يُؤَكِّدُ عَلَى الرَّحْمَةِ الْإِلٰهِيَّةِ؛ حَيْثُ إِنَّ الْحَيَاةَ الَّتِي يُنْعِمُ بِهَا اللَّهُ تَعَالَى هِيَ الْأَصْلُ، بَيْنَمَا الْمَوْتُ يَأْتِي فِي سِيَاقِ أَمْرٍ إِلَهِيٍّ مُرْتَبِطٍ بِالْحِكْمَةِ.

وَعَلَى مَرِّ الْعُصُورِ؛ شَكَّلَ التَّفْسِيرُ الْبَلَاغِيُّ أَدَاةً مُهِمَّةً لِفَهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ؛ فَفِي الْعُصُورِ الْأُوَلِى كَانَ التَّفْسِيرُ الْبَلَاغِيُّ يَرْتَكِزُ عَلَى السُّبُلِ اللُّغَوِيَّةِ وَالتَّراكيبِ النَّحْوِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَسْتَنْبِطُ المَعَانِي مِنَ التَّركِيبِ اللُّغَوِيِّ. وَقَدْ قَامَ الْمُفَسِّرُونَ الْأَوَائِلُ بِاستِخْدَامِ الْبَلَاغَةِ لِتَفْسِيرِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ عَبْرَ الْإِشَارَةِ إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَالحَذْفِ، وَالتَّوكِيدِ، وَالْقَصْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَبِمُرُورِ الزَّمَنِ؛ أَصْبَحَ التَّفْسِيرُ الْبَلَاغِيُّ أُسْلُوبًا مُتَّبَعًا مِنْ قِبَلِ الْمُفَسِّرِينَ الْكِبَارِ؛ حَيْثُ قَامُوا بِدَمْجِ الْبَلَاغَةِ مَعَ الْفِقْهِ وَالتَّفْسِيرِ لِتَوْضِيحِ الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةِ مِنَ النُّصُوصِ.

أَمَّا فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ؛ فَقَدْ تَطَوَّرَ اسْتِخْدَامُ الْبَلَاغَةِ فِي التَّفْسِيرِ لِيَشْمَلَ التَّحْلِيلَ اللُّغَوِيَّ والْأَدِلَّةَ السِّيَاقِيَّةَ لِلْآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ، مِمَّا أَضْفَى عُمقًا فِي فَهْمِ الْمَعَانِي وَإِبْرَازِ أَسْرَارِ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ؛ تَأْتِي "مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ الْبَلَاغِيِّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ"، وَهُوَ مَشْرُوعٌ رَائِدٌ تَبَنَّاهُ مَجْمَعُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ[1]، وَهُوَ يَسْعَى إِلَى تَجْمِيعِ الدُّرَرِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالتَّحْلِيلَاتِ اللُّغَوِيَّةِ الدَّقِيقَةِ، مَا يُعْتَبَرُ إِضَافَةً جَلِيلَةً لِلْخِدْمَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْبَلَاغِيَّةِ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(1) طُبعت منه 9 مجلدات سنة 2023 وقد اشتملت على تفسير القرآن الكريم من أوله إلى الآية 106 من سورة المائدة. ثم طبع 16 مجلدا آخر، من الآية 107 من سورة المائدة إلى آخر سورة الحجر، وذلك سنة 2024. والعمل متواصل في إكمال بقية التفسير.

2.5. أَثَرُ السِّيَاقِ فِي تَوْجِيهِ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ:

إِنَّ السِّيَاقَ يُعَدُّ أَحَدَ الْمَفَاتِيحِ الْأَسَاسِيَّةِ لِفَهْمِ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ، حَيْثُ يُسْهِمُ فِي كَشْفِ مَقَاصِدِ الْآيَاتِ وَتَوْجِيهِ الْمَعْنَى نَحْوَ الْفَهْمِ الْمُرَادِ. وَيَنْقَسِمُ السِّيَاقُ إِلَى سِيَاقٍ دَاخِلِيٍّ (لُغَوِيٍّ) يَتَعَلَّقُ بِالنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ نَفْسِهِ، وَسِيَاقٍ خَارِجِيٍّ (سِيَاقِ الْمَوْقِفِ) يَرْتَبِطُ بِالسِّيَاقِ التَّارِيخِيِّ وَالظُّرُوفِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ وَالزَّمَانِيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا الْآيَاتُ(1).

أَوَّلًا: دَوْرُ السِّيَاقِ الدَّاخِلِيِّ:

يُؤَثِّرُ السِّيَاقُ الدَّاخِلِيُّ فِي تَوْجِيهِ الْمَعْنَى مِنْ خِلَالِ التَّرَابُطِ بَيْنَ الْآيَاتِ وَالْجُمَلِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِوَضْعِ الْكَلِمَاتِ وَالْجُمَلِ فِي نِظَامٍ دَقِيقٍ يُسْهِمُ فِي إِبْرَازِ مَقَاصِدِ الْمُخَاطَبِ.

فَمَثَلًا: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ [الماعُون:4-5]. فَلَوْ أُخِذَتِ الْآيَةُ: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ**﴾ بِمَعْزِلٍ عَنِ السِّيَاقِ؛ لَكَانَتْ وَعِيدًا لِكُلِّ مُصَلٍّ، وَهَذَا لَا يَتَّفِقُ مَعَ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ. وَلَكِنَّ الْآيَةَ التَّالِيَةَ: ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾؛ أَزَالَتْ هَذَا الْإِشْكَالَ، وَوَجَّهَتِ الْمَعْنَى نَحْوَ ذَمِّ الْمُقَصِّرِينَ فِي صَلَاتِهِمْ، وَلِذَا لَا يَجُوزُ قَطْعُ الْقِرَاءَةِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ**﴾ وَإِنْ جَازَ الْوَقْفُ عَلَيْهَا عَلَى الصَّحِيحِ الْمُخْتَارِ مِنْ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ؛ لِكَوْنِهَا رَأْسَ آيَةٍ(2)، وَلَكِنَّ الْقَطْعَ عَلَيْهَا لَا يَجُوزُ؛ لِلإِيهَامِ الشَّدِيدِ فِي ذَلِكَ.

ثَانِيًا: دَوْرُ السِّيَاقِ الْخَارِجِيِّ:

يُؤَدِّي السِّيَاقُ الْخَارِجِيُّ دَوْرًا مُهِمًّا فِي تَفْسِيرِ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ، حَيْثُ يَتَعَلَّقُ بِالظُّرُوفِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا الْآيَةُ وَالْأَحْدَاثِ الَّتِي رَافَقَتْ ذَلِكَ.

فَفِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ**﴾ [النُّور:29]، فَالسِّيَاقُ الْخَارِجِيُّ لِهَذِهِ الْآيَةِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ظُرُوفٍ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَتَنَقَّلُونَ فِيهَا فِي أَرْضٍ وُجِدَتْ فِيهَا بُيُوتٌ غَيْرُ مَأْهُولَةٍ تُسْتَخْدَمُ لِلرَّاحَةِ وَالْقِيَامِ بِالْحَاجَاتِ(3). وَبِذَلِكَ يَتَوَجَّهُ الْمَعْنَى إِلَى جَوَازِ دُخُولِ هَذِهِ الْبُيُوتِ لِغَرَضٍ مُبَاحٍ.

3.5. دِلَالَةُ التَّرَاكِيبِ النَّحْوِيَّةِ فِي إِبْرَازِ الْأَبْعَادِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِلْآيَاتِ:

تُعَدُّ التَّرَاكِيبُ النَّحْوِيَّةُ أَحَدَ أَسَاسِيَّاتِ التَّفْسِيرِ اللُّغَوِيِّ لِلنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ حَيْثُ يَتِمُّ مِنْ خِلَالِهَا اسْتِكْنَاهُ أَعْمَاقِ الْمَعَانِي وَإِبْرَازُ الْأَبْعَادِ الْمَقْصُودَةِ فِي السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ. فَالنَّظْمُ النَّحْوِيُّ لِلْكَلِمَاتِ دَقِيقٌ لِلْغَايَةِ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى قَصْدٍ عَمِيقٍ يَتَّفِقُ مَعَ مَقَاصِدِ الْمُتَكَلِّمِ. وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ دَوْرُ التَّرَاكِيبِ النَّحْوِيَّةِ فِي إِبْرَازِ الرَّوَابِطِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْآيَاتِ وَفَهْمِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ أَحْكَامٍ وَمَقَاصِدَ.

---

(1) يُنظر: أحمد مختار، علم الدلالة، ص:69.

(2) لعبد الواحد المارغني رسالة مستقلة في بيان هذه المسألة، مطبوعة في ذيل كتاب جده إبراهيم المارغني (النجوم الطوالع)، ص: 256-257.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 202/18.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [هُود: 44]، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَرَاكِيبُ نَحْوِيَّةٌ دَقِيقَةٌ تُبَيِّنُ السِّيَاقَ الْإِعْجَازِيَّ لِلْقُرْآنِ[1]، حَيْثُ اسْتُعْمِلَ الْفِعْلُ الْمَاضِي ﴿**وَقِيلَ**﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَحَقُّقِ الْفِعْلِ وَحُصُولِ الْقَضَاءِ النِّهَائِيِّ، وَجَاءَ التَّوَجِيهُ لِلْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِصُورَةِ خِطَابٍ مُوَجَّهٍ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَاضِعٌ لِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. كَمَا أَنَّ الْجُمْلَةَ ﴿**وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ**﴾ تَدُلُّ عَلَى دَقَّةِ التَّرَاكِيبِ النَّحْوِيَّةِ فِي الْإِيجَازِ مَعَ كَمَالِ الْمَعْنَى، حَيْثُ اجْتَمَعَ فِي كَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَصْفُ نَتَائِجِ الْأَمْرِ بِوَجْهٍ كَامِلٍ، قَالَ الزَّرْكَشِيُّ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى: "أَمَرَ وَنَهَى، وَأَخْبَرَ وَنَادَى، وَنَعَتَ وَسَمَّى، وَأَهْلَكَ وَأَبْقَى، وَأَسْعَدَ وَأَشْقَى، وَقَصَّ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا لَوْ شُرِحَ مَا انْدَرَجَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ بَدِيعِ اللَّفْظِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْإِيجَازِ وَالْبَيَانِ؛ لَجَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَانْحَسَرَتِ الْأَيْدِي"[2].

وَالْحَاصِلُ أَنَّ التَّرَاكِيبَ النَّحْوِيَّةَ فِي الْقُرْآنِ لَا تُفْهَمُ إِلَّا فِي السِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ، مِمَّا يُضِيفُ لَهَا بُعْدًا مَعْنَوِيًّا عَمِيقًا وَإِعْجَازًا بَلَاغِيًّا فَرِيدًا.

إِنَّ دِلَالَةَ التَّرَاكِيبِ النَّحْوِيَّةِ فِي إِبْرَازِ الْأَبْعَادِ الْمَعْنَوِيَّةِ تُشَكِّلُ جَانِبًا عَمِيقًا فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَا يُمْكِنُ فَهْمُ الْمَعَانِي بِوَجْهٍ وَافٍ دُونَ تَحْلِيلِ هَذِهِ التَّرَاكِيبِ الَّتِي تَتَفَاوَتُ فِي إِبْرَازِ الدِّلَالَاتِ وَالْإِشَارَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ.

6. خاتمة

تَنَاوَلَ هَذَا البَحْثُ التَّفَاعُلَ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مُبْرِزًا أَثَرَهُ الْعَمِيقَ فِي تَفْسِيرِ النُّصُوصِ القُرْآنِيَّةِ بِدِقَّةٍ وَشُمُولِيَّةٍ. وَقَدْ خَلُصَ الْبَحْثُ إِلَى عَدَدٍ مِنَ النَّتَائِجِ الْمُهِمَّةِ، نُجْمِلُ أَبْرَزَهَا فِي النِّقَاطِ الْآتِيَةِ:

أَوَّلًا: يُشَكِّلُ التَّفَاعُلُ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى جُزْءًا أَسَاسِيًّا مِنْ بَلَاغَةِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، حَيْثُ تَتَكَامَلُ الْمَعَانِي اللُّغَوِيَّةُ مَعَ التَّرَاكِيبِ النَّحْوِيَّةِ وَالْبَلَاغِيَّةِ لِتَقْدِيمِ دِلَالَاتٍ دَقِيقَةٍ وَعَمِيقَةٍ.

ثَانِيًا: لِلْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ دَوْرٌ يَتَجَاوَزُ الظَّاهِرَ اللَّفْظِيَّ، لِيَشْمَلَ الْأُسْلُوبَ وَالتَّرْكِيبَ الَّذِي يُبْرِزُ رَسَائِلَ الْقُرْآنِ بِدِقَّةٍ.

ثَالِثًا: يُسْهِمُ التَّفَاعُلُ بَيْنَ تَقْدِيمِ الْأَلْفَاظِ وَتَأْخِيرِهَا وَالتَّوْكِيدِ وَالإِضَافَةِ فِي إِبْرَازِ دِلَالَاتٍ بَلَاغِيَّةٍ جَدِيدَةٍ تُثْرِي تَفْسِيرَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ بِمَعَانٍ نَفِيسَةٍ.

رَابِعًا: إِظْهَارُ التَّفَاعُلِ بَيْنَ السِّيَاقِ وَالنَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ يُؤَكِّدُ أَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ أَوْ تَرْكِيبٍ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وُضِعَ بِدِقَّةٍ تَتَنَاسَبُ مَعَ مَقَاصِدِ الْآيَةِ وَدِلَالَاتِهَا الْمُتَعَدِّدَةِ.

(1) أفردها بالتصنيف جماعةٌ، منهم ابن الجزري في رسالته المسماة: كفاية الألمعي في آية: يا أرض ابلعي. وهو من مطبوعات دار الآفاق الجديدة ببيروت، سنة 2003.

(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 227/3.

خَامِسًا: التَّوَسُّعُ فِي دِرَاسَةِ أَثَرِ السِّيَاقِ الْبَلَاغِيّ فِي تَفْسِيرِ النُّصُوصِ يُسَاعِدُ فِي إِظْهَارِ مَعَانٍ جَدِيدَةٍ تَلَبِّي احْتِيَاجَاتِ الْقُرَّاءِ الْمُعَاصِرِينَ.

وَفِي ضَوْءِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ نَتَائِجَ؛ يُمْكِنُ تَقْدِيمُ بَعْضِ التَّوْصِيَاتِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ تَعْمِيقَ دِرَاسَةِ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيّ، وَمِنْ ذَلِكَ:

أَوَّلًا: تَعْزِيزُ الدِّرَاسَاتِ الْمُرَكِّزَةِ عَلَى التَّفَاعُلِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى لِإِغْنَاءِ التَّفْسِيرِ الْقُرْآنِيّ.

ثَانِيًا: دَعْمُ إِجْرَاءِ بُحُوثٍ تَرْكِّزُ عَلَى التَّفَاعُلِ بَيْنَ السِّيَاقِ النَّصِّيّ وَالْبَلَاغَةِ؛ لِكَوْنِهَا عَامِلًا مُهِمًّا فِي فَهْمِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ بِشَكْلٍ شُمُولِيٍّ وَمُتَعَمِّقٍ.

7. قائمة المراجع:

- ابن الجزري، محمد بن محمد، [د.ت]، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي بن محمد الضباع، مصر، المطبعة التجارية الكبرى.
- ابن الجزري، محمد بن محمد، 2003م، كفاية الألمعي في آية: يا أرض ابلعي. لبنان، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، 1404، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، لبنان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، 1422، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، لبنان، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر الزرعي، 1416، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المتعصم بالله
- ابن عاشور، محمد الطاهر، 1984م، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر.
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي، 1422، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- ابن هشام، عبد الله بن أحمد الأنصاري، 1383، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، الطبعة الحادية عشرة.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، 1413، دلائل الإعجاز، مصر، مطبعة المدني، الطبعة الثالثة.
- الجيزاني، محمد بن حسين، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، 1427، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي، الطبعة الخامسة.
- الخطابي، حَمْد بن محمد بن إبراهيم، 1976م، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول، مصر، دار المعارف، الطبعة الثالثة.
- الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، 1376، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى.

- الشهاب الخفاجي، أحمد بن محمد بن عمر، [د.ت]، عناية القاضي وكفاية الراضي، لبنان، دار صادر.
- الصعيدي، عبد المتعال، 1426، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، مصر، مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشرة.
- عبد الرزاق، حسن إسماعيل، 2006م، البلاغة الصافية، مصر، المكتبة الأزهرية للتراث.
- الفوزان، عبد الله بن صالح، 1422، حصول المأمول بشرح ثلاثة الأصول، المملكة العربية السعودية، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى.
- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، 1384، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم اطفيش، مصر، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية.
- القِنَّوجي، محمد صديق خان، 1412، فتح البيان في مقاصد القرآن، لبنان، المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
- المارغني، إبراهيم بن أحمد، 1995، النجوم الطوالع على الدرر اللوامع، لبنان، دار الفكر.
- الماوردي، علي بن محمد البصري، [د.ت]، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود، لبنان، دار الكتب العلمية.
- مجموعة من الباحثين، 2023، موسوعة التفسير البلاغي، الإمارات العربية المتحدة، منشورات القامسي، الطبعة الأولى.
- مختار، أحمد عمر، 1998م، علم الدلالة، مصر، عالم الكتب، الطبعة الخامسة.
- المراغي، أحمد مصطفى، [د.ت]، علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، [د.ب].
- المعزبي، عبد الله بن زيد اليماني، 1425، تشحيذ الأفهام في إطلاقات الأمر والنهي والاستفهام، تحقيق: المهدي محمد الحرازي، لبنان، دار البشار الإسلامية، الطبعة الأولى.
- الواحدي، علي بن أحمد، 1430، التفسير البسيط، تحقيق: مجموعة من الباحثين، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى.

8. Bibliography List

- Abdul Razak Hassan Ismail, 2006, The Pure Rhetoric, Egypt, Al-Azhar Library for Heritage;
- Al Khattabi Hamad Bin Mohammed Bin Ibrahim, 1976, Demonstration of Inimitability of the Quran (among three papers in the Inimitability of the Quran), Examination: Mohammed Khalaf Allah and Mohammed Zaghloul, Egypt, Al-Maarif house, 03rd Edition;
- Al-Fawzan, Abdullah Bin Salih, 1422, Obtaining the Hoped by Explaining the Three Origins, Saudi Arabia, Al-Rashid Library, 01st Edition;
- Al-Jizani Mohammed Bin Hussein, Signposts of the Islamic Jurisprudence among the Sunnis and the Community, 1427, Saudi Arabia, Ibn Al-Jawzi house, 05th Edition;
- Al-jurjani Abd Al-Qaher Ibn Abd al-Rahman, 1413, Signs of Inimitability of the Quran, Egypt, Almadani press, 03rd Edition;
- Al-Ma'izbi Abdullah Bin Zaid Al-Yamani, 1425, Sharpening the understanding in the Issues of Command, Prohibition and Questioning, Examination: Al-Mahdi Muhammad Al-Harazi, Lebanon, Dar Al-Bashar Al-Islamiya, 01st Edition;
- Al-Maraghi Ahmed Mustafa, [D.T.], Sciences of Rhetoric: Meanings, Clarification and Creator, [D.B];

- Al-Marghani Ibrahim Bin Ahmed, 1995, the Rising Stars on the Shining Udders, Lebanon, Dar Al-Fikr;
- Al-Mawardi Ali Bin Muhammad Al-Basri, [D.T], Scratch up and Eyes, Examination: Syed Bin Abul Maksud, Lebanon, House of Scientific Books;
- Al-Qunuji Mohammad Sidique Khan, 1412, Opning the Eloquent Speech the Attentions of the Quran, Lebanon, the Modern Library for Printing and Publishing;
- Al-Qurtubî Muhammad Ibn Ahmad Al-Ansârî, 1384, The Collector of the Rules of the Qur'an, Examination: Ahmad Al-barduni and Ibrahim atfesh, Egypt, Egyptian House of Books, 02nd Edition;
- Al-Saidi, Abdul-Mat'al, 1426, For Clarification to Summarize the Key, Egypt, Library of Literature, 17th Edition;
- Al-Shihab Al-Khafaji Ahmad Ibn Muhammad Ibn Umar, [D.T], The Judge's Attention and the Contented Adequacy, Lebanon, Sader House;
- Al-Wahidi Ali Bin Ahmed, 1430, Simple interpretation, Examination: A group of researchers, Saudi Arabia, Imam Muhammad Bin Saud Islamic University, 01st Edition.
- Al-Zarkashi Muhammad Ibn Abdullah Ibn Bahadur, 1376, Proof in the Sciences of the Quran, Examination: Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Egypt, Dār Iḥyā' al-Kutub al-'Arabiyah, 01st Edition;
- Ben Achour Mohamed Tahar, 1984, Liberation and Enlightenment, Tunisia, Tunisian publishing house;
- Group of researchers, 2023, Encyclopedia of rhetorical interpretation, United Arab Emirates, Al-Qamsi publications, 01st Edition;
- Ibn Al-Jawzi Abd Al-Rahman Ibn Ali, 1404, "The Book of the Excursion of the Observing Eyes in the Science of Faces and Isotopes", Examination: Muhammad Abdul Karim Kazem Al-Radi, Lebanon, Alresala Foundation, 01st Edition;
- Ibn Al-Jawzi Abd Al-Rahman Ibn Ali, 1422, "Zad Al-Masir Fi 'Ilm Al-Tafsir" (Provision of the Unfree in the Science of Interpretation), Examination: Abdul Razzaq al-Mahdi, Lebanon, "Dar Al-Kitab Al-'Arabi" (Arab Book House), 01st Edition;
- Ibn Al-Jazari Muhammad Ibn Muhammad, [D.T], Publishing in the Ten Readings of the Quran, Examination: Ali Ibn Muhammad Al-Dabba, Egypt, the great commercial printing press;
- Ibn Al-Jazari Muhammad Ibn Muhammad, 2003, the sufficiency of the bright in the verse: "O earth! Swallow up your water", Lebanon, New Horizons house, 01st Edition;
- Ibn Al-Qayyim Muhammad Ibn Abi Bakr Al-Zarai, 1416, Routes between the Houses of "It is You we worship, and upon You we call for help", Examination: Muhammad Al-Muʿtaṣim Bi-llāh;
- Ibn Atiyah Abd al-Haqq Ibn Ghalib Al-Andalusi, 1422, The Brief Editor in the Interpretation of the Dear Book, Examination: Abd Al-Salam Abd al-Shafi Muhammad, Lebanon, House of Scientific Books, 01st Edition;
- Ibn Hisham Abdullah Bin Ahmad Al-Ansari, 1383, Explaining the Drew Drops and Echo Wetting, Examination: Muhammad Muhyi al-Din Abdul Hamid, Cairo, 11th Edition;
- Mokhtar Ahmed Omar, 1998, Semantics, Egypt, the world of books, 05th Edition;